عرفت هؤلاء

بقلم :
انور السادات

غيرت من هيئتى ، واطلقت لحيتى ، وخلعت ملابس المدينة ، وارتديت ملابس اهل القرية . حتى اسمى غيرته ، واصبحت معروفا باسم الحاج محمد نور الدين . وعملت فوق عربة نقل بضائع ، امعانا فى اخفاء شخصيتى .

وعندما تصورت اننى نجحت فى محاولتى ، فوجئت بان امرى انكشف ! وان فلاحا بسيطا فى قرية نائية عرف حقيقتى ، ولكن الشىء المذهل ـ حقيقة ـ انه احتفظ بالسر ، ولم يكشفه لأحد ، ولم يفكر لحظة واحدة فى المكافأة المالية المغرية التى كان فى استطاعته ان يحصل عليها لو انه ذهب الى نقطة البوليس ، وابلغ عنى !

الأوفياء

أصعب

ما يواجه الانسان ان يضطر إلى ان يناقض نفسه ، رغما عنه . لقد جربت هذا الموقف اكثر من مرة ، خلال فترات عصيبة من حياتى . فمثلا .. لقد مارست العمل السياسى ، وحاربت الاحتلال البريطانى لبلادى ، واعددت نفسى لاحتمال القبض على ، والحكم على بالسجن سنوات لا اعرف عددها ! وهذا ما حدث بالفعل ! ومع استعدادى لتقبل هذا كله ، الا اننى اضطررت إلى التمرد ، ورفض المصير الذى ينتظرنى ، والذى توقعته ، واعددت نفسى له .

لقد سجنت ، بأمر من سلطة الاحتلال الانجليزى . واعتقلت فى سجن الاجانب مع باقى السجونين السياسيين الذين امرت الاحزاب السياسية الحاكمة باعتقالهم عقابا لهم على تصرفات اعتبرتها تلك الاحزاب معادية لها . فانتهزت فرصة قفزها على السلطة فامرت باعتقالهم وسجنهم . وعندما جاءت الاحزاب المعارضة وفازت هى بالسلطة ، سارعت بالافراج عن المعتقلين الذين اعتقلتهم الاحزاب الاخرى .

وخرج جميع المعتقلين من السجن ، الا انا ! وعندما سألت قيل لى ان امر اعتقالى صدر من سلطة الاحتلال الانجليزى ، وبالتالى فان امر الافراج عنى يجب ان يصدر عن نفس الجهة !

وهنا لم استطع ان اتحمل اكثر مما تحملت .. واضطررت إلى ان اتمرد ، وان ارفض ان اترك مصيرى فى ايدى قوة الاحتلال الانجليزى . وصممت على الهروب من السجن . ووضعت خطتى ، ونفذتها بنجاح ، واصبحت ـ فجأة ـ حرا بلا حراس ، وبلا اسوار !

وكان يمكن ان اختفى عن الانظار . بل كان يجب على ان اختفى ، حتى لا اقع مرة ثانية فى ايدى رجال البوليس السياسى ، ولحساب سلطة الاحتلال البريطانى . وكان من السهل جدا ان اختفى بعيدا عن العاصمة ، فاتعب إلى القمى الصعيد ، واعيش بين الحقول ، او داخل كهوف الجبال ، بعيدا عن العيون .

كان يمكن ان يحدث هذا كله ، لولا اننى اضطررت اضطرارا إلى ان ابقى فى العاصمة ، ولا اختفى بعيدا عنها . ليس هذا فقط ، بل واجبرت على ان اغادر مكان نومى فى صباح كل يوم بحثا عن قوتى ، وقوت الاسرة المسئولة منى ! فلم اكن املك مالا اتعيش منه . ولم يكن لى من افراد اسرتى من يساعدنى ماديا . فانا من اسرة فقيرة . وحتى لو وجدت من يساعدنى بماله ، فمن المؤكد اننى كنت سارفض ان اعيش عالة على غيرى .

ولم يكن امامى ، وانا هارب من العتقال ، سوى ان ابحث عن عمل فى اى مكان . ووجدت هذا العمل فى قلب القاهرة . وعلى بعد خطوات من البوليس السياسى ، ومن كلاب السلطة البريطانية ! عملت فوق سيارة نقل بضائع عتيقة ، وقديمة جدا . واضطررت إلى ان اغير من هيئتى ، فاطلقت لحيتى ، وارتديت الملابس البلدية . ومارست عملى الجديد بكل نشاط ، وحماس . ولم يشك احد فى شخصيتى ، لدرجة ان السائق الذى عملت معه تصور اننى لم اعمل فى حياتى غير هذا العمل الذى اقوم به معه !

وذات يوم قيل لى اننا وفقنا فى الفوز بعملية كبيرة ، فى قرية مزغونة ، على بعد نحو ٣٠ كيلو مترا من الجيزة ، فى اتجاه الصعيد .

كنا وقتها فى اوائل سنة ١٩٤٥ ، وكانت الحكومة تقوم برصف الطريق البرى بين القاهرة ، واسوان ، وبمعدل ٣٠ كيلو مترا فقط كل سنة . وفى هذه السنة كانت المسافة المطلوب رصفها تبدأ من قبل قرية مزغونة بقليل ، وتستمر إلى ما بعدها بكثير . وكان المقاول الذى يقوم بعملية رصف الطريق اجنبيا متمصرا يدعى خلاط . وهو الذى اتفق معنا على ان نتولى عملية نقل البيش الذى يحدد به جانبى الطريق ، ويطلق عليه اسم بردورة .

وكانت عملية تستغرق فترة طويلة ، فالطريق يحتاج إلى كميات كبيرة من هذا البيش ، وكان خلاط المقاول يحاسبنا على اساس تسعة مليمات لكل بردورة .

واقد اسعدتنى جدا هذه العملية ، لا لشىء الا لاننا سنعمل بعيدا عن القاهرة ، وعن زحامها . واتكر اننا بدأنا العمل فى نهاية شهر ديسمبر ، واوائل شهر يناير سنة ١٩٤٥ . اى فى عز فصل الشتاء . وذهبنا اولا إلى معاينة مكان العمل ، فعرفنا ان الحجر البيش ياتى من طره بالراكب ، التى ترسو امام قرية اسمها المرازيق ، تقلع قبل مزغونة ، وبعد البدرشين . وكان يطلق على المكان الذى تقف عنده المراكب ، كما هو الحال على طول النيل ، اسم « الموردة » ، ومن المبالغ فيه ان نصف الموردة بالميناء . فلا تشابه ابدا بينهما . فالموردة عبارة عن قطعة من الأرض تطل على نهر النيل ، وتسمح بإقتراب المراكب منها ، والوقوف عندها ، لتفريغ حمولتها من الركاب ، والبضائع .

ولم يكن لنا شان بالراكب . فالمقاول خلاط هو الذى تعاقد على شراء البيش ، وهو الذى تعاقد مع اصحاب المراكب على نقله من طره حتى موردة المرازيق . وهناك يتم تفريغ المراكب من البيش على الموردة . لنأتى نحن بعد ذلك ونبدأ فى نقل البيش بسيارتنا حتى مكان رصف الطريق .

وعندما وصلنا إلى الموردة فوجئنا بأن المراكب كانت قد بدأت تصل قبلنا . واخذت فى تفريغ حمولتها ، وتشوينها بالقفل فوق الأرض ، وعلى الفور احضرنا الانفار الذين اتفقنا معهم على نقل الحجارة من الأرض إلى السيارة ، ثم من السيارة إلى الطريق المرصوف ، بعد ذلك .

وبدأنا عملنا ..

وبدون تفكير قررنا ان نقيم فى منطقة الموردة ، ونصبنا الخيمة ، ونمنا ليلتنا الأولى داخل تلك الخيمة التى كان الهواء البارد يتسرب إلى داخلها ، ويتخلل إلى اجسامنا وينفذ حتى عظامنا !

وكانت ليلة رهيبة لن ننساها ابدا ..

حقيقة اننى كنت انام فوق سريرى السفرى ، الذى كنت قد اشتريته عند النحاتى بالجيش ، ووضعت عليه لحافا ، وفوق اللحاف بطانية ، كمرتبة ، ثم وضعت فوقى لحافا وبطانية ايضا . وعلى الرغم من ذلك فان البرد لم يكن محتملا . وامضيت ساعات الليل الطويلة وانا ارتعش فوق سريرى السفرى الصغير .

ومعاذ زاد من ألمى ، اننى عندما غادرت خيمتى فى الصباح الباكر ، وجدت العمال ينامون وليس فوق اجسامهم سوى ملاءة محلاوى ذات المربعات ! كانوا ينامون داخل خيمة صغيرة جدا ، واشعلوا النيران امام مدخل الخيمة ، طلبا للدفء . وكانت الخيمة صغيرة ، كما قلت . ولم تكن تتسع لجميع العمال . فاضطر بعضهم إلى النوم فى العراء ، وبقرب النيران المشتعلة .

حقا لقد صدق من يقول لنا : « ربنا بيدى البرد ، على اد الغطا » .

المهم ..

بدأنا عملنا بكل همة ، ونشاط . فبمجرد ظهور الشمس ، عم الدفء فى اجسامنا ، وازداد احساسنا بهذا الدفء مع سرعة حركتنا ، وعملنا .

وجاء من ينصحنا بالبحث عن مأوى ننام فيه ، بدلا من النوم فى الخيام ، وفى العراء . واقترح علينا ان نمضى ساعات العمل ـ منذ طلوع الشمس ، وحتى غروبها ـ فى منطقة الموردة ، ثم نعود فى وقت الغروب إلى قرية قريبة اسمها مزغونة ، نبحث فيها عن مكان ننام فيه .

ووافقنا على الاقتراح ، وتحمست له ، خاصة بعد الليلة الرهيبة التى امضيتها فريسة للبرد القارس ، والهواء الثلج الذى كان يهاجم الخيمة من كل الفتحات !

وبحثنا فى القرية عن مسكن ، فلم نجد سوى « جراج » على الطريق ، وامامه قطعة ارض فضل العمال ان يقيموا فوقها خيمتهم ، وتركوا لى الجراج لانام داخله ، وفوق سريرى السفرى . وقد اسعدنى ذلك كثيرا ، خاصة لأن للجراج بابا محكم الاغلاق ، ويحمينى من ويلات البرد والرياح !

وكانت الترعة على بعد خطوات منا . وسهل هذا كثيرا على العمال ، للاغتسال من مياهها .

وبدأنا حياتنا الجديدة ، كالآتى :

نستيقظ مع طلوع الشمس ، ونذهب جميعا إلى المقهى القريب ، ونشرب شايا بالنعناع فقط . وبعد ذلك نذهب إلى الموردة ، لنبدأ عملنا المتواصل . وقرب الظهر نتوقف عن العمل لنتناول وجبة الغداء . وهى فى الواقع تمثل وجبتى الافطار والغداء معا . وهذه الوجبة « الدسمة » تتكون فى ٩٩٪ من الأحوال من قطعة صغيرة من الجبن ومعها رغيف العيش !

ولم يحدث ان رفضت هذا الطعام . بل ربما يكون قد اسعدنى . فقد اعادنى إلى حياة القرية ، ونظامها . ففى قريتى ـ ميت ابو الكوم ـ كنت ارى الفلاح يتناول طعامه فى الغيط ، وقت الظهر . وكانت الزوجة او الأم هى التى تحضره له . وكان الطعام يختلف من فلاح لآخر ، تبعا لحالته المالية . فاذا كان فى حالة مالية طيبة ، فان طعامه يتكون عادة من سلطانية شعرية مسلوقة ، وقطع من الخيار المخلل . اما الفلاح الذى يعانى من ازمة مالية ، فطعامه يتواضع وينكمش ويصبح مجرد قطعة من الجبن القديم ، او من الجبن الذى نصنعه فى بيوتنا . وهو يستخرج من اللبن بعد ان نأخذ منه القشدة والزبد ويتبقى ما نسميه باللبن الرايب .. فى « المشرد » . وهذا اللبن الرايب نضعه فى حصيرة ، تفصل عليه ، ويتسرب منها الماء المخلوط باللبن ويتبقى الجبن القريش .

والجبن القريش كان أول طعام تفتحت عليه شهيتى ، واحببته ، وكنت اضع قطعة منه فى « السياله » اى فى جيب الجلابية التى كنت اذهب بها إلى كتاب القرية لأحفظ فيه القرآن الكريم . ولا يتصور احد سعادتى وانا اقضم رغيف العيش وبداخله قطعة الجبن القريش .

نعود إلى الموردة ، والبيش ، وعملنا الذى لا يتوقف منذ طلوع الشمس وحتى غروبها .. فاقول ان طعامنا ـ وقت الظهر ـ كان يتكون عادة من الجبن الذى نشتريه من البقال ـ وكان ـ بالطبع ـ يختلف تماما فى مذاقه ، عن الجبن القريش اللذيذ . وكنا نتحمل كمية اللح الرهيبة المخزونة داخل الجبن الذى نشتريه من البقال داخل رغيف العيش . وكان العمال لا يكتفون برغيف عيش واحد ، وانما ياكل الواحد منهم رغيفين او ثلاثة ارغفة ، تمتلىء بها بطنه ، فيشبع .

وكان يوم الخميس عندما تأتى فلاحة وتبيع لنا قطعا من العجوة . فكنا نتهافت عليها ، ونحتفظ بها إلى ما بعد تناول قطعة الملح المخلوط بالجبن ، ورغيف العيش ، فنزيل بحلاوتها اثار اللوحة التى لا تحتمل داخل الفواهنا !

ثم نقوم لنواصل عملنا فى حمل البيش ، ونقله ، إلى مكان رصف الطريق ، إلى ان تختفى الشمس ، فنتوقف عن العمل ، ونعود إلى قرية مزغونة ، فيذهب العمال إلى حافة الترعة ، ليغتسلوا ، وادخل انا إلى الجراج واغتسل فى طبق كبير اصب فيه الماء من ابريق ضخم . ثم اتوضأ ، واصلى ، واستبدل ملابسى باخرى نظيفة بعد تعب النهار ، وعرقه .

وبعد ذلك نتجمع ونذهب إلى المطعم الوحيد فى القرية . وهناك نستمتع بالوجبة الأساسية ، والتى تبدأ عادة بالشوربة الساخنة . وعادة ايضا تتكون من شوربة العدس الذى يزود اجسامنا بالبروتين المطلوب . وبعد الشوربة يطلب كل واحد منا ما يريد وما يتحمله جيبه . بالنسبة لى انا كنت اطلب طبق الخضار ، وبه قطعة اللحم ، وطبق الأرز الأبيض . اما العمال فكان طبقهم الرئيسى ، والوحيد ، هو طبق شوربة العدس ، ومعه ثلاثة ارغفة كاملة . ويحدث ان يضاف إلى الشوربة ، طبق الخضار ، مرة واحدة كل اسبوع .

وبعد الانتهاء من العشاء ، كنا نتوجه إلى القهوة لنشرب المشروبات الساخنة ، كالشاى ، او الجنزبيل ، وقتها كانت اثمان السجاير ، واحيانا ان وجدت الشيشة ، كنت ادخنها ايضا .. ونمضى بعد الوقت فى الاستماع إلى جهاز الراديو ، او نلعب الطاولة او الدومينو . ثم نغادر القهوة ونذهب إلى اماكن نومنا . العمال داخل خيمتهم ، وانا بالقرب من النار فى الهواء الطلق ، وانا داخل الجراج واغلق بابه حتى قرب ملامسته للأرض .

مضى يومان على وجودنا فى هذه القرية ..

وفى اليوم الثالث حدثت المفاجأة التى لم اكن اتوقعها ، او انتظرها . فقد استيقظنا فى الصباح الباكر كعادتنا .. وشربنا الشاى الحلو بالنعناع ، وذهب العمال بالسيارة النقل الى منطقة الموردة التى ننقل منها شحنات البيش التى كانت تصل ثبتا بالمراكب الشراعية . وفى هذا الصباح لم اذهب مع العمال الى منطقة العمل ، كالعادة . بل بقيت فى قرية مزغونة ، لانهاء بعض الأعمال ، الخاصة بتموين السيارة بالبنزين ، والزيوت ، والشحوم . وذهبت لمقابلة متعهد شركة شل البترول ، بعد ان طلبت منى زملائى الذهاب الى منطقة العمل قبلى ، على ان تكون على السيارة فى طريق عودتها ، وبعد ان تنتهى من افراغ شحنتها الأولى من البيش عند الطريق الجارى رصفه .

وانتهيت عملى مع متعهد محطة شركة شل ، وانتظرت ان تصل السيارة لتعود بى الى منطقة العمل ، ومرت ساعات ، ولم تصل السيارة ، ليس هذا فقط بل انى لم ار السيارة وهى فى طريقها الى مكان رصف الطريق محملة بالبيش . اى ان السيارة لم تغادر الموردة حتى الآن !

ولم اعرف السبب فى هذا التأخير ، ولا السبب فى عدم قيام السيارة بنقل الحجارة!

وعندما طال انتظارى ، قررت ان ابحث لى عن اية وسيلة مواصلات لتنقلنى الى الموردة لأعرف السبب وراء هذا التأخير ، ووراء عدم قيام السيارة بنقل الحجارة . وبالفعل اوقفت سيارة فى الطريق ، وافق قائدها على ركوبى معه من قرية مزغونة ، حتى مدخل الموردة فى المرازيق .

وهناك وجدت السيارة واقفة ، والعمال لا يعملون!

وسألت عن السبب ، ففوجئت باخر ما كنت انتظر سماعه عن الأسباب .

قالوا لى اننا خالفنا الأصول . ولم نحترم العرف . فقد اتضح ان لكل موردة مسئولا عنها ، يحرسها ، وينظم العمل فيها ، ويتكسب عيشه من دخلها! هناك شخص يتمتع بحق استغلال كل موردة على النيل ، ويتقاضى من المراكب التى تقف عندها ، ومن اصحاب سيارات النقل التى تنقل الشحنات من فوق ارضها ، مبالغ معلومة ومتفقا عليها مقدما .

ولم نكن نعرف اى شىء عن هذا النظام ..!

لقد كانت هذه هى اول عملية لنا من هذا النوع . والذين اعطونا مكانها لم يطلبوا منا التفاهم اولا مع حارس الموردة . والذى حدث اننا وصلنا ، فوجدنا البيش فوق الأرض ، بعد ان تم نقله من المراكب الشراعية التى جاءت به من طره . وكل ما فعلناه هو اننا اسرعنا بنقل البيش بالسيارة الى منطقة العمل ، وحتى نفسح المكان للبيش القادم فى المراكب التالية .. وهكذا .

لم يسألنا احد ماذا نفعل؟ ولم يطلب منا احد ان ندفع مقابل حق استغلال الموردة فى وقوف المراكب امامها ، ونقل البيش من فوق ارضها!

وتبين لى بعد ذلك ان صاحب حق استغلال الموردة كان مريضا فى منزله . ولذلك لم يظهر عند وصولنا . ولم يطالبنا بحقه الذى تعارف عليه الجميع . ووافقوا عليه ، وسلموا به له . وعلى الرغم من مرض صاحب حق استغلال الموردة ، الا ان رجاله ذهبوا اليه واخبروه باننا نستخدم ارضه فى تفريغ ، ونقل البيش ، بدون اذنه! وتحامل الرجل على نفسه فى صباح اليوم الثالث من بدء عملنا ، وذهب الى منطقة الموردة فى الصباح الباكر فقابلنا . وعندما لم يجدنى ، امر بعدم نقل البيش ، او تفريغه!

وتوجهت الى المكان الذى يجلس فيه ، ففوجئت به رجلا ، مهيبا ، طويلا ، عريضا ، يتميز بوقار ، واتزان ، مما شجعنى اليه حتى قبل ان اسمع منه كلمة واحدة . وبادرته قائلا :

ـ السلام عليكم يا حاج .

فرد قائلا :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وسألته :

ـ ايه اللى حصل يا حاج؟

فاجابنى بكلمات قليلة ، هادئة ، وبلا انفعال :

ـ لقد عرفت انك جئت الى هنا اول امس . وانك عملت فى نقل البيش من الموردة منذ وصولك . اى انك عملت يومين حتى الآن .

فقلت له :

ـ باقفعل حدث هذا بالضبط .

فعاد يقول دون ان يحتد او تتغير نبرات صوته :

ـ الم تفكر فى ان تسأل عن الشخص المسئول عن تلك الموردة ، وتستأذنه فى استغلال ارضها ، قبل ان تبدأ عملك فوقها؟! الم يخطر على بالك لحظة واحدة ان تبحث عن صاحب حق استغلال تلك الموردة ، لتعطيه حقه؟!

وسارعت بالرد ، مدافعا عن موقفى :

ـ صدقنى اننى لم اكن اعرف اى شىء عن هذا الموضوع . ولم يقل لى احد ان علينا ان ندفع مقابل استخدام الموردة فى تفريغ البيش ، ونقل الشحنات من فوق ارضها ، الا ما سمعته منك الان .

فرد قائلا :

ـ لقد انتظرت عليك يومين . وعندما لم تأت لتتفق معى ، قررت ان ارد عليك ، وان امنع نقل البيش من الموردة ، ليس هذا فقط بل وامرت بالحجز على سيارة النقل ومنع تحركها ، حتى اراك!

كان الرجل يتكلم بأسلوب يهزنى حقيقة ، واثار اعجابى به الى اقصى درجة . لقد نسيت لحظة ما فعله بى ، وما تسبب فيه من تعطيل مصالحى . كل ماشغل تفكيرى فى تلك اللحظات اننى امام قيمة من قيم مصر . امام كبرياء مصر . امام الشخصية المصرية الحقيقية . امام الحق المصرى ، الذى لا تنازل عنه ، ولا تهاون فى شأنه . فالرجل لم يفعل اكثر مما هو من حقه . فطالب به . ولم ينتظر اكثر من ان يرد اليه هذا الحق .

حقيقة لقد ازداد اعجابى ، وانبهارى ، بالرجل لاقصى مدى ..

وعلى الرغم من هذا الانبهار ، الا اننى لم امنع نفسى من ان اقول له :

ـ اننى افهم ان تمنع نقل البردورة ـ البيش ـ لحين الاتفاق معى على العملية . فهذا حقك . ولكن الذى لا افهمه ـ وانت رجل تعرف الحق والأصول ـ ان تأمر بالحجز على السيارة ، وتمنع تحركها . وكنت اتوقع ان ترسلها لى فارغة ، لاعود بها لمقابلتك والتفاهم معك . اما ما فعلته ، فقد الحق بنا خسارة مادية ، وعطلنا عن ثانية عملنا ، وعدم تنفيذ التزامنا مع المقاول الذى تعاقد معنا على نقل البيش . كما ان العمال جلسوا بلا عمل ، وساتحمل اجورهم عن عمل لم يقوموا به لسبب خارج عن ارادتهم!

واطرق الرجل برأسه مفكرا ، ثم نظر الى بعد صمت طويل وقال :

ـ فعلا .. الحق معك . ولم يكن من حقى ان احجز السيارة ، وامنع تحركها .. اننى اعترف بأننى اخطأت فى حقك وحملتك خسارة لم تكن تستحقها . ولابد من تعويضك عنها . لقد قررت ان اعطيك « ٥ جنيهات » مجانا .

والو سقة تعنى حمولة مركب . اى ان الرجل قرر ان لا يتقاضى مليما واحدا عن حمولة مركبين تعويضا لى عن الخسارة التى لحقت بى ، نتيجة لخطأ ارتكبه ، واعترف به ، عندما منع سيارتى من التحرك ، فأضاع على نهار عمل كامل .

ولم ينتظر الرجل سماع كلمة شكر منى . بل قام من مكانه ، وامر العمال بمواصلة العمل ثم عاد ليتفق معى على عملية التفريغ والنقل .

وانتهت المشكلة ..

واصبحنا اصدقاء ..

وعندما انتهت العملية ، ذهبت الى الرجل لتسوية حسابى معه . وكنت قد نسيت تماما ما كان بيننا من خلاف فى اول لقاء . وحسب الرجل ماله عندى ، فاعطيته ما طلبه ، وهممت بالذهاب ، ففوجئت به يستقطع جانبا من المبلغ الذى دفعته له ، واعاده الى ، فسألته مندهشا :

ـ ما هذا يا حاج؟

فقال :

ـ هذا مقابل الوسطتين الجانبيتين ، تعويضا لك عن خسارتك كما اتفقنا من قبل!

ولا يتصور احد كم اكبرت هذا الموقف من الرجل العظيم الواقف امامى وقتذاك . لقد ازداد اعجابى به اضعاف اضعاف . فالرجل بجبروته على احترامه . وكلماته القليلة المتزنة ، تدفعك دفعا الى الاستماع اليه ، والتأثر به .

وان انسى ابدا هذا الرجل .. ولا اعرف اين هو الآن . لقد عرفته سنة ١٩٤٥ وكان عمره فوق الخمسين ، وعلى الرغم من مظهره المهيب ، الا انه كان يشكو من مرض ما ، كثيرا ما اقعده عن العمل ، وملاحظة ما يجرى فوق الموردة التى يكسب عيشه منها .

الرجل لم يتعلم فى مدرسة . ولم يتخرج فى جامعة . فهو لا يقرأ ، ولا يكتب . ولم يغادر قريته . ولم يعش فى المدينة . ولم يزر حضارة العاصمة . وعلى الرغم من هذا كله ، عرف قدسية ان تطالب بحقك ، وان تعطى للغير حقه .

ولم يكن هذا الرجل وحده الذى يهزنى بأخلاقه ، وقيمه ، ومبادئه ، فى تلك القرية التى قد لا يسمع عنها احد من ابناء القاهرة اليوم . كثيرون مثله ، قابلتهم هناك ، واعجبت بهم ، ولن انسى ابدا ما فعلوه من اجلى ..

كما قلت ـ فى بداية هذا الحديث ـ اننى اضطررت مرارا الى ان افعل شيئا ، ثم اعود وافعل نقيضه تماما . فمثلا كان على ان اتخفى فى هيئة مقاول نقل بضائع . وبدلا من ان ابتعد بقدر الامكان عن الانظار ، اضطررت الى ان اظهر فى كل مكان ، بلا خوف ، ولا حرص! لقد طالت ايام عملنا فى القرية الصغيرة . ولم يعد من المقبول ان استمر فى اقامتى داخل الجراج ، خاصة ان اهل القرية ينظرون الى مقاولى نقل البضائع نظرتهم الى علية القوم ، الذين تمتلىء جيوبهم بالمال . وجاء من يقول لى ان هناك شقة صغيرة خالية ، وتقع فوق الجراج بالضبط . وعرض على ان استأجرها من صاحبها ، خاصة انه ـ اى صاحب المنزل ـ كان راضيا عنى ، وعن اهتمامى بعملى ، وحرصى على تأدية العملاء فى اوقاتها . اضف الى ذلك اننى اطلقت على نفسى اسم الحاج محمد نور الدين!

ووافقت على الاقتراح ، وطلبت تأجير الشقة الصغيرة ، ورحب صاحب البيت بالعرض ووافق عليه بلا تردد .

وانتقلت من الجراج الى الشقة فى الطابق الأول ..

وتعارفت على اكبر عدد من سكان القرية ، الذين جالستهم فى القهى ، وفى المطعم .. ولم يحدث اى شىء يهدد بالكشف عن شخصيتى ، الا مرة واحدة ، عندما لاحظت ان شعر رأسى طال كثيرا ، واستحق ان يقص . وذهبت الى الحلاق الوحيد فى القرية ، واسلمت شعرى لمقصه ، واعطيت اذنى لسانه الذى لم يتوقف عن الكلام ، كالعادة . وكنت ارد بكلمات مقتضبة جدا ، واقل بكثير من كلمات السؤال ذاته!

وفجأة .. توقفت سيارة جيش امام محل الحلاق ، ونزل منها احد الضباط بملابسه العسكرية! وجلس ، بعد ان سلم على الحلاق الذى تبين انه يعرفه . فهو ـ اى الضابط ـ يقيم فى قرية قريبة من هنا وتعود ان يقص شعر رأسه بمقص هذا الحلاق .

ويبدو ان الضابط تعرف على ، رغم اللحية تحت ذقنى ، ورغم الجلباب الذى ارتديه ، ورغم المكان الذى اقيم فيه . ولكن الحقيقة ان الضابط لم يبد اية حركة او اية نظرة يفهم منهما انه عرفنى ، او كشف عن شخصيتى الحقيقية . بل على العكس من ذلك وجدته يتجاهلنى تماما وتحدث مع الحلاق امامى ، كما لو لم اكن موجودا معهما!

وغادر المحل ، وانا احمد الله ان الضابط لم يعرفنى ، او على الأقل لن يشى بى للحلاق . وفى اليوم التالى ، وعند الغروب وبعد الانتهاء من العمل ، اخذت طريقى ناحية المطعم لأتناول فيه طعام العشاء ، ومررت على القهى القريب من المطعم ففوجئت بالحلاق جالسا مع ضابط بوليس نقطة مزغونة ، ويتبادل معه حديثا جادا وخافتا ، انقطع بمجرد ظهورى امامهما والقائى تحية المساء عليهما!

ولم اتوقف ، بل استمررت فى سيرى ناحية المطعم ، وانا غير مطمئن ابدا على ما جرى امامى ، وتصورت ان الضابط كشف للحلاق عن حقيقتى ، وان الحلاق قام ـ بدوره ـ بالابلاغ عنى للضابط البوليس . وتوقعت ان يأتى ضابط البوليس للقبض على فى اية لحظة!

وتناولت طعامى بطريقة آلية ، فلم اكن اتذوق الطعام طعما ، ولم اكن اجد اى شبع فى ما ياكلنى!

ولم استطع ان انام فى تلك الليلة . ولم ينقذنى من القلق ، والتفكير ، الا ظهور الشمس فى صباح اليوم التالى ، فغادرت فراشى ، والمنزل ، مبكرا ، وذهبت الى العمل لانسى فى زحمته مخاوفى ، وشكوكى .

وانتهى العمل ـ كالعادة ـ عند الغروب ، وقررت ان اذهب الى الحلاق لأتحقق من ظنونى ، وقبل ان اذهب الى غرفتى لأغسل فيها وجهى .

ودخلت على الحلاق ، وصافحته ، ورحب بى ترحيبا كبيرا كعادته . فالرجل على مايبدو كان معجبا بى . فهو كثير السؤال فى قضايا كثيرة ، ووجد منى فهما غير الذى تعود عليه من باقى زبائنه من اهل القرية البسطاء .

وقبل ان اتمادى فى تبرير حضورى اليه مرة ثانية فى اقل من ٢٤ ساعة ، فوجئت به يقول لى :

ـ اسمع يا حاج محمد .. انا مالتهتش فيك!

وكانت مفاجأة عنيفة ، موجعا معها فى الأسبوع القادم .

أنور السادات